Louay M. Safi

*Islam and the Trajectory of Globalization:*
*Rational Idealism and the Structure of World History*
(London; New York: Routledge, 2022). 322 p.

# الإسلام ومسارات العولمة:
# المثالية العقلانية وبنية تاريخ العالم

محمد حصحاص(*)
جامعة لويس الدولية، روما - إيطاليا.

## - 1 -

أصدر الأكاديمي والمفكر السوري-الأمريكي لؤي صافي كتابًا جديدًا باللغة الإنكليزية بعنوان، **الإسلام ومسارات العولمة: المثالية العقلانية وبنية تاريخ العالم**. يُذكر أن صافي خريج الجامعات الأمريكية ومحاضر فيها لأكثر من ثلاثة عقود، وحاضر إعلاميًا أيضًا ومدافع عن حقوق الانسان والقضايا العربية والإسلامية بشمال أمريكا، وحاليًا يشغل منصب أستاذ العلوم السياسية والفكر الاسلامي بجامعة حمد بن خليفة بقطر.

يرى صافي في هذا الكتاب أن العالم أصبح يشهد حضارة معولمة واحدة، وكل الثقافات والأديان والفلسفات يمكن أن تشارك في بنائها وتصحيح مسارها الحالي الذي يحتاج إلى تجديد ثقافي يؤدي فيه الفكر الديني والفلسفي المثالي العقلاني - وليس الواقعي الوضعي أو التجريبي الطاغي حاليًا - دورًا توجيهيًا مهمًا. قد يبدو الكتاب طارحًا لموضوعٍ دُرس وطغى على الساحة الثقافية خلال العقد الأخير من القرن الماضي، أي قرن الحديث عن العولمة ونهاية القطبية الثنائية، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات كما نظر لها فرانسيس فوكوياما وصمويل هانتنغتون أساسًا، وبرنار لويس بشكل مختلف، بإشارات، إن جاز التعبير. لو كتب هذا الكتاب في حينه ربما لما كان مهمًا كما هو

(*) البريد الإلكتروني: hashasmohammed@gmail.com

مهم الآن، لسبب أساسي في نظري، وهو أننا في الوطن العربي خصوصًا كنا نحتاج لرجّة أخيرة كرجّة الربيع العربي لنختم اختياراتنا الفكرية، أو على الأقل لنكون قد جربنا الاختيارات الفكرية الكبرى بشكل من الأشكال، أعني العروبية والاشتراكية والعلمانية العسكرية والاسلاموية السياسية. سقطت كل هذه الأيديولوجيات، لكن آمالها الكبرى، مُثُلها الكبرى ما تزال صالحة نسبيًا، ولكنها تحتاج إلى إطار جديد يستوعبها ويصالحها مع ذاتها ومع العالم الخارجي. فالربيع العربي مثال للعولمة الواقعية النيوليبرالية البراغماتية في العلاقات الدولية التي يرمي الكاتب إلى تصويبها أخلاقيًا.

يضع هذا الكتاب الفكر الإسلامي عمومًا في سيرورة تاريخية كبرى، وتجعله مُساهمًا ومشاركًا، وليس رائدًا أو مسؤولًا لوحده، في إنقاذ المستقبل من توحّش النيوليبرالية، وهي سليلة الليبرالية الإنسانية والمثالية التقليدية والليبرالية الواقعية-الهيمناتية التي تلتها إلى الآن. يجعل الكتاب المثالية العقلانية الإسلامية التي يمثلها المعتزلة مُساهمةَ العالم الإسلامي في فكر العولماتية الإنسانية المستقبلية.

يعيد الكتاب كتابة تاريخ الفكر الأوروبي الحديث من طريق التركيز على منهج العلوم الإسلامية العقلانية والتجريبية ونفَسها الأخلاقي المثالي الذي غذى الحضارة الغربية خلال العصور الوسطى.

## ـ 2 ـ

يدافع هذا الكتاب عن العقلانية والإيمان من أجل مستقبل إنساني أفضل يساهم فيه الجميع، وبخاصة الديانات الإبراهيمية والتي يمثل الإسلام آخر عنقودها وأحسن من مثلها عِلميًا وسياسيًا لمدة ألف عام، من القرن الثامن إلى حدود القرن الثامن عشر ميلادي تقريبًا. يضع الكتاب الإسلام والفكر الإسلامي ضمن ما نظّر له الفيلسوف والمؤرخ السويسري-الألماني كارل ياسبرس بالعصر المحوري، أي عصر الأفكار الفلسفية والدينية الكبرى الذي ظهرت فيه الأديان والفلسفات المؤثرة، أي المدة بين القرن الثامن والقرن الثالث قبل الميلاد، وهي حقبة الفكر والفلسفة اليونانية التأسيسية من هومر وهيرقليطس وأفلاطون، وحقبة ظهور زرادشت وبوذا والكنفوشيوس واليهودية التأسيسية. أما المسيحية والإسلام فهما توابع وخلاصات لهذه المرحلة من تاريخ الفكر الإنساني العقلاني والمثالي التأسيسي أو المحوري حسب ياسبرس.

يبني الكتاب فكرته باستعمال تاريخ العالم كما نظّر له الألماني أوسفلد سبينغلر والإنكليزي أرنولد توينبي والأمريكي مارشال هودسن. فسبينغلر يميز بين الحضارة والثقافة، وتوينبي يعطي دورًا مركزيًا لدور الدين في قيام الحضارات، وهودسن يضع الإسلام في سياق تاريخي أعمّ يدمج الحضارة الإسلامية في قراءة تاريخ أوروبا والغرب عمومًا، وهو قريب من المدرسة التاريخانية التي تدرس العصر القديم المتأخر من القرن الرابع للسابع الذي ظهر فيه الإسلام.

ولأن الكاتب يدافع عن أهمية الدين من أجل تصحيح مسارات العقلانية الواقعية التي تغذي النيوليبرالية المتوحشة، فإنه استعمل كُلًّا من توينبي لدفاعه عن الدين وشبينغلر لدفاعه عن الحضارة المستقبلية التي يشارك فيها الجميع، كل من ثقافته ومُدخراتها الفكرية، كما استعمل هودسن ليبين أن الحضارة الإسلامية كانت حَيّة إلى غاية القرن الثامن عشر، وهو القرن الذي بدأت فيه موازين القوى تميل لكفة الغرب الحديث فكريا وإقتصاديا وسياسيًا واجتماعيًا.

## ـ 3 ـ

خلاصة الكتاب هي أن العالم الآن يعيش حضارة معولَمة واحدة، كلٌّ حسب سياقه التاريخي والثقافي، لكن المؤسسات الدولية ووسائل التواصل الحديثة والتكنولوجيا المتقدمة جعلت من العالم قرية صغيرة فعلًا، وأصبحت فكرة حقوق الإنسان والمساواة والحرية والكرامة أفكارًا إنسانية عالمية تطمح إليها كل المجتمعات. لا يوجد بديل حضاري عن هذه الحضارة الواحدة، ولكن هذا لا يعني أن القانون الدولي والمؤسسات الدولية والحضارة الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا تستسيغ بسلاسة هذه الحركية التاريخية. فمقولة العدو الإسلامي مثلًا ما تزال قائمة، ومقولة أن الصين هي عدو المستقبل أصبحت رائجة، لكن رغم ذلك فالأفق الإنساني واحد ويجب العمل تشاركيًا لإنجاحه لتفادي الشعوبيات والأصوليات الصاعدة ونظريات العداء والعدو-الجار أو العدو التاريخي.

## ـ 4 ـ

يرى الكاتب أن النموذج الليبرالي الأمريكي التأسيسي القديم ما يزال قادرًا على أن يوجه العالم وينقذه من التصادم، لأن الليبرالية المثالية الكلاسيكية كان مؤسسوها الأوائل رجالًا سياسيين علمانيين متدينين، بخلاف الليبرالية الأوروبية إجمالًا التي قامت على أسس المصادمة مع الكنيسة والعقل الديني. لذلك نجد الكاتب يرى أن على أمريكا أن تنقذ أوروبا من نظرتها الجوهرانية للتاريخ الإنساني ونظرتها العقلانية المحضة للدين، إلى درجة أنه يشير لتأثير بعض المفكرين السياسيين الذي فرّوا من أوروبا الشعبوية والدموية خلال الثلاثينيات من القرن الماضي في الفكر السياسي الأمريكي الذي أصبح أكثر براغماتيًا ونيوليبراليًا بعدما كان ليبراليًا منفتحًا ومثاليًا منذ التأسيس إلى ما بُعيْدَ الحرب العالمية الثانية. وهنري كسينجر كان أحد هؤلاء الأوروبيين النازحين المؤثرين في سياسات الولايات المتحدة الامريكية.

لتجاوز النيوليبرالية الواقعية والغازية نحتاج إلى الرجوع لليبرالية المثالية الأكثر إنسانية ورحابة والأكثر انفتاحا على الأخلاق الدينية والروحية التي تحتاجها الحضارة المعولمة. ليس هناك بديل آخر من هذه الأخلاق المثالية التي رسختها الأديان التوحيدية الثلاثة والفلسفات العقلانية المثالية، كفلسفة كانط، التي يعيد إحياءها فلاسفة كبار أمثال الأمريكي جون رولز والألماني يوغن هابرماس والكندي تشارلز تايلر.

وللمسلمين وبخاصة المقيمين بالغرب

أو المسلمين الغربيين مساهمات في مثل هذه الحوارات الفكرية، ويذكر الكاتب أمثال طلال أسد، وعبد الله النعيم، وخالد أبو الفضل، وبعض الأصوات النسائية السياسية التي تحمل زادها الأخلاقي الديني للمجال السياسي كالأمريكية من أصل صومالي إلهان عمر. أما العالم الصيني والهندي فالكاتب يشير إليه كرافد مؤسس للعصر المحوري لكنه لا يناقشه لأنه خارجَ تخصصه وإلمامه.

## ـ 5 ـ

بإيجاز، تحتاج الإنسانية إلى فكر ترانساندانتالي ليعالج آفاتها الأخلاقية على كل الصعد، والعقلانية المثالية هي الحل، بدل المذاهب الواقعية النيوليبرالية، والتجريبة والطبيعية التي أظهرت التجربة حدودها وآفاتها، بخاصة عندما يتم تأويلها سياسيًا واقتصاديًا. وللعالم الإسلامي نموذج وتاريخ يجعله قادرًا على المساهمة في بناء هذه العقلانية المثالية التي لم تعرف صراعًا بين الدين والسلطة ولا بين الدين والعلم، بل إن نموذجها العلمي التجريبي والأخلاقي في نفس الوقت مثال كبير يمكن التعلم منه من جديد لبناء توافق عولمي جديد بين العلم والأخلاق والسياسة. ونموذج المعتزلة والأشاعرة الذين بنوا طريقًا وسطًا بين العقل والوحي من أهم ما يركز عليه الكاتب كمساهمة إسلامية تاريخية قابلة للانبعاث.

وتجاوبًا مع قراءة الكتاب، نرى أن بعض النقاط فيه تحتاج إلى وقفات، وقد عبرنا عنها خلال ندوة حوارية مع الكاتب، نظمتها الجمعية السورية للعلوم الاجتماعية يوم 3 كانون الثاني/ يناير من بداية هذه السنة 2022، وأوجزنا التساؤلات في شقين: عام وخاص.

**أولًا**، في الجانب العام، يبدو أن الكاتب يتغاضى عن دور الدولة القطرية الحديثة المتعاظم في زمن العولمة. العولمة المنفتحة تحتاج إلى دول وهويات صلبة ولكن منفتحة في الوقت نفسه، وليس العكس. العولمة تبدأ محليًا وإلا بقيت حديث النخبة ومثالًا بعيدًا. الهوياتية في تصاعد في كل ربوع العالم ولو أن حديث العولمة في الساحة الثقافية منذ ثلاثة عقود. واليمين والخوف من المختلف كذلك في تصاعد، حتى في الديانات أو الفلسفات التي كانت تبدو مسالمة جدًا كالبوذية. ربما يبدو دور الدولة أكثر أهمية من ذي قبل إلا إذا أصبح المنظّرون لها متشبعين بالعولمة المنفتحة كما يصفها الكاتب. والدولة في الوطن العربي ما تزال لم تقم، أو قل كانت تقوم فأُسقِطت وسَقطت في كثير من أقطارها التي كانت لعقودٍ كثيرة دولًا ذات وزن كبير في الساحة السياسية. هل المطلوب فكريًا الآن التماهي مع فكر العولمة أم مع فكر الدولة الحديثة أولًا؟ تبدو النظرة العقلانية المثالية التي يطرحها الكتاب صالحة لدول حديثة قائمة وليس لدول لم تقم بعد، ليس لاستحالة ذلك فكريًا بل واقعيًا وعقلانيًا.

**ثانيًا**، قد يبدو التركيز على الإبراهيمية مثاليًا جدًا في الكتاب، لأن الكاتب لم يعط أمثلة واقعية حول الاختلافات التي تجعل الديانات الإبراهيمية تتوافق أو تتطابق في دفاعها عن الإنسانية. الإبراهيمية في مأزق حاليًا والقضية الفلسطينية خير مثال لذلك، إلا إذا حدثت معجزة فكرية أولًا

لتتحول إلى معجزة سياسية تحل المشكل. ربما قد تساهم المثالية العقلانية في حلها إذا تبنتها الإدارة الأمريكية أساسًا؟ في تفاعله مع هذا التساؤل، وضح الكاتب أن فكرة الإبراهيمية هنا فكرية-فلسفية أساسًا ولا علاقة لها بالإبراهيمية السياسية التي تتبناها بعض الدول أو الخطابات السياسية التي تُشَرعِن سحق حقوق الشعب الفلسطيني. أُضيف هنا أن الإبراهيمية مخيفة للمركزية الغربية، وللمركزية الأوروبية أساسًا، لأن الإبراهيمية بشكل مبسط تعطي الخاتمية العقدية والفكرية للإسلام، وهذا ما لا يتقبله العقل الغربي، ولا يفهمه بشكل معقول الفكر السلفي الإسلامي الذي يسيء استعمال هذه الفكرة. وأرى أن العولمة المتخَلِّقة التي يتحدث عنها الكاتب، وبناء على فكرة العصر المحوي، ليست كافية لاستساغة معنى الفكر الإبراهيمي بعد. أعتقد أن تاريخ الإنسانية يحتاج إلى رجّة سياسية أو طبيعة قبل أن يفهم أن هذا السياق الثقافي المتوسطي مترابط ومرتبط جدًا على مختلف الصعد. إن الأفكار الكبرى في التاريخ تحتاج سندًا سياسيًا واقتصاديًا يدعهما، وإلا بقيت مثاليات.

**ثالثًا**، ومرورًا بإيجاز، تنتمي الحضارة الصينية للعصر المحوري الذي أخذه الكاتب معيارًا للحديث عن العقلانية المثالية، لكننا لا نعرف جيدًا لا في العالم العربي ولا حتى في العالم الغربي المتقدم كيف تغير الفكر الصيني إلى حد الآن وما هي أزمنته الفكرية المتعاقبة منذ العصر المحوري. ما يبدو لنا بشكل مبسط، والمبسط يحتاج أن يُبسطُ فيه القول، هو أن الثقافة الصينية الحالية أصبحت حاملة للنيوليبرالية الغربية التي ننتقدها. فكيف نعول عليها كمساهِمة في النقد والتحديث لإنسانية أفضل؟ تبدو لنا الصين نحن العرب مثالًا للتقدم والسيادة في وجه الغطرسة الغربية، لكنها أبعد عنا تاريخيًا وفكريًا على ما يبدو، وبخاصة أنها لا تنتمي للسياق الإبراهيمي. فنيوليبراليتها – أي النيوليبرالية الجديدة الواقعية ـ قد تكون أقسى كثيرًا من نيوليبرالية الغرب لأن ليس لها تقليداً ترانساندانتاليًا- مثاليًا يصحح أخطاءها، فهي واقعية جدًا على ما يبدو، وتعاليم كونفوشيوس علمانية-إدارية بالأساس وليست مثالية. إن المتخصصين في الفكر الصيني وحدهم من يستطيعون أن يعطونا فكرة أوضح عن الحوارات الفكرية الداخلية التي يعيشها هذا العالم القديم الصاعد.

## ـ 6 ـ

أما في الشق الثاني الذي يخص تراثنا العربي الإسلامي ـ ومختلف مكوناته الفكرية واللسانية والعرقية، فيمكن التفاعل بإيجاز هنا مع هذه النقط الأساسية. **أولًا**، قد يمكن القول أن المعتزلة يمثلون الفلتة الأكثر عقلانية وعالمية في التراث العربي الإسلامي، لكن تأويلاتهم سياسيًا أجهضت مسيرهم خلال ثلاثة عقود تقريبًا من المحنة، كما هو معروف. لكن، رغم ذلك، فإن العلوم في شتى المجالات ازدهرت لقرنين متتاليين بعدهما على الأقل، ليس فقط لأن الأشاعرة وجدوا طريقًا عقديًا وفكريًا وسطًا بين العقل المحض والنقل المحض، بل لأن الأجهزة السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية

كانت كلها تشتغل، وكان للوقْفِ دور بارز في هذا الثراء. فهل نحتاج إلى أن نرى دائمًا بعين الشوق للمعتزلة؟ أم لبعض تأويلاتهم التي ما تزال صالحة الآن، وبخاصة مبدأي التوحيد والعدل؟ وكيف يمكن أن نقنع الأشاعرة إجمالًا والحنابلة بأهمية التفكير الديني والفلسفي المعتزلي حاليًا، في ظل الدولة الحديثة التي تستأثر بالحقل الديني؟ ربما تركيز الكاتب على دور الوقف وعلى دور المفكرين وليس على رجال الدين المحافظين فيه إجابة عن هذه الأسئلة. **ثانيًا**، لم يظهر لي أن الكتاب يذكر دور التصوف على الإطلاق، وبخاصة في دوره في تقارب الأديان مثلًا بعيدًا من الأيديولوجيا والسياسة، وفي التركيز على الفرد وأخلاقه لمصلحة المجتمع الإنساني عمومًا. ثالثًا، يهملُ الكتاب مناقشة أفكار المفكرين العرب والمسلمين المعاصرين وبخاصة أن كثيرين منهم يبدون معتزليين إما ظاهرًا أو باطنًا. أغلب الإصلاحيين في الوطن العربي يبنون رؤاهم على الحنفية الإبراهيمية في الفكر والعقيدة وعلى مسألتَي العدالة الاجتماعية والأخلاق سياسيًا، مجتمعًا وفردًا. كنت أود أن أرى مناقشة أحد المفكرين مثلًا كتمثيل للمساهمة الأخلاقية العربية والإسلامية. صحيحٌ أن الكاتب يفعل ذلك في كتبه الأخرى، كما وضح خلال ندوة المناقشة، ولكن هذا الكتاب أيضًا كان يستحق مناقشة بعض أفكار المفكرين العرب والمسلمين، كأعمال المصري حسن حنفي الذي ركز في مشروعه على مسألتي التوحيد في العقيدة والفكر وعلى العدالة الاجتماعية سياسيًا، أو أعمال المغربي طه عبد الرحمان مثلًا الذي بنى نسقًا أخلاقيًا متميزًا في مجادلاته مع مفكرين غربيين كبارًا، ومنهم جون رولز ويورغن هابرماس اللذان يشير إليهما الكاتب صافي في أكثر من مناسبة كفلاسفة كانطيين جدد يحاولون رد الاعتبار للعدالة الاجتماعية والأخلاق العالمية من منظور ليبرالي.

## ـ 7 ـ

إجمالًا، هذا الكتاب مساهمة مهمة في تاريخ الأفكار وفلسفة التاريخ من منظور عربي إسلامي منفتح على التاريخ الإنساني. ففيه كثير من التصويبات التي يحتاج إليها الفكر الغربي أساسًا في نسجه لأسس فكره الفلسفية والعقدية؛ فكرٌ يقفز على ما يزيد على ألف سنة من الازدهار الثقافي والسياسي العربي والإسلامي الذي أدى دورًا مهمًا في نهضته. كما أن الكتاب يتحدى الواقع الفكري والعلمي والسياسي في السياقين العربي والإسلامي عمومًا؛ سياقٌ أصبح هجينًا ومتشظيًا لظروف داخلية وخارجية كثيرة. تحتاج العولمة القادمة، والحقة، إلى جرعات أخلاقية مهمة لتصحيح مسارها، وهذا جوهر الكتاب ودعوته، وليس لنا إلا أن نزكيها بكل الطاقات الفكرية المتاحة. ولنا في السياق العربي والإسلامي عمومًا ما يجعل المساهمة في هذا الخطاب أمرًا واجبًا، رغم كل المشاكل الأساسية التي تواجهها مجتمعاتنا. قد يكون التقدم التقني والاقتصادي متاحًا للبعض فقط لكن الواجب الأخلاقي متاح للجميع، وواجب على الجميع، متقدمًا كان أم متأخرًا، فقيرًا أم غنيًا.